درس في المدنية الاميركية

مبني على المشاهدة العيانية

مشاهدات في اميركا

قوات اميركا العظمى

﴿المدرسة﴾ ذكرنا في المقالة السابقة بعض الاسباب الرئيسية التي تنشئ قوات اميركا العظمى وهي ١ً جامعة عادلة قوية ٢ً المجالس النيابية ٣ً قوة المعارضة بين الاحزاب لبقاء الافضل ٤ً حرية الجرائد . ولكن هذه الاسباب كلها لم تكن لتؤثر تأثيراً فعالاً في انهاض الامة وترقية شؤونها اذا لم يكن هناك عنصر قوي يمدها بالقوة اللازمة لقيامها وقوتها . ورب امة اجتمعت فيها هذه الاسباب الاربعة ولم تبلغ من العز والارتقاء مبلغاً يستحق الذكر وذلك لفقدها هذا العنصر القوي . ونريد بهذا العنصر المدرسة .

ان القول بان المدرسة اساس نهضة الامم قول مألوف بين الكتاب والقراء في الشرق . وقد نقلنا منذ سنين قول بسمارك حين سئل بماذا تغلبت امتكم على الامة الفرنسوية في سنة ١٨٧٠ فاجاب . بمعلم المدرسة . وقد رأينا هذا القول بعد ذلك على شباة كثير من اقلام الادباء وفي صفحات كثير من الجرائد . وقد قامت في مصر وغيرها من اقطار الشرق في السنوات الاخيرة صيحة تصم الآذان بشأن الكليات والمدارس والكتاتيب . فبعض الادباء ينشئ الكتاتيب ليجعلها مورداً للرزق وبعض الاغنياء ينشئها طلباً للشهرة وبعض الجمعيات ينشئها ليكون لها غرض تجتمع حوله . ولا تزال نهضة الكتاتيب وضجتها قائمة في مصر حتى هذه الايام لان الذين ينشئونها قد سمعوا من قادتهم ان انشاء المدارس خير من انشاء الجوامع والكنائس . ولا نزال نذكر قولاً لجريدة المؤيد بهذا الشان حين طلب بعض من اهالي الريف من المرحوم منشاوي باشا المثري المصري الشهير ان يتبرع باصلاح جامع بلدتهم المتداعي . قالت ما خلاصته . ان كثيراً من الجوامع في الريف متداعية متقاتلة . فاذا طلب اهل كل قرية مثل هذا الطلب من منشاوي باشا اضطر ان يوزع ثروته على هذه الجوامع بلا فائدة . لان المسلم يمكنه ان يصلي في كل مكان والدنيا كلها جامع له .

وانما حاجته الاولى الى المدارس فيجب تقديم انشاء المدارس على اصلاح الجوامع او انشائها .

وحقاً ان الكاتب الذي في نفسه اقل حب للحقيقة والاخلاص وارتقاء الشعوب يشعر بارتياح وقشعريرة في نفسه حين يقرأ قولاً جميلاً كهذا القول من جريدة اسلامية او مسيحية . واذا كان بعيداً عن مصر وسمع اقوالاً كهذه الاقوال ورأى في جرائدها المقالات والاحتفالات بشأن الكتاتيب ومدارس الجمعيات خيل له ان مصر قد بلغت منها الغاية التي ما بعدها غاية . وقد رأينا اثر هذا الوهم في كثير من الجرائد التي لم تعرف مصر الاَّ بما قرأته عنها . والحقيقة ان الكتاتيب والمدارس الاهلية التي تنشأ اليوم في مصر وجودها وعدمها سيان . بل قد سمعنا بعض اكابر وفضلاء المصريين ممن لهم علاقة ببعضها وهم اعرف الناس بها يقولون ان وجودها اشد ضرراً من عدمه وانه خير لهم لو انها لم توجد . وسبب ذلك ان هذه المدارس والكتاتيب لا تقوم بشيء من وظيفة « المدرسة الحقيقية .

وليس في الدنيا بلد تظهر فيه وظيفة المدرسة الحقيقية ظهوراً جلياً كالبلاد الاميركية . وانك اذا رفعت هذه المدارس من الولايات المتحدة فقدت اميركا اساس قوتها واول مبادئها الفعالة في نهضتها

ونرجو من القارئ ان يلاحظ اننا لا نريد هنا « بمدارس اميركا » كلياتها العلمية ومدارسها الزراعية والصناعية والتجارية فاننا نعرف في اوروبا وعلى الخصوص في انكلترا والمانيا وفرنسا كليات ومدارس ارقى واعظم من الكليات والمدارس الاميركية من الجهة العلمية والفنية . وانما تفضل الكليات والمدارس الاميركية الكليات والمدارس الاوروبية بامر واحد شديد الاهمية وهو جعلها التعليم فيها منطبقاً كل الانطباق على حاجات الشعب ومقتضيات العصر الحديث الذي اصبحت المعيشة فيه جهاداً هائلاً بين الناس . فهي تلقن طلبتها كل ما ينفعهم في هذا الجهاد ويقويهم عليه وذلك اولاً بتقوية ابدانهم وتنشيط نفوسهم بالرياضة والالعاب البدنية التي اشتهرت بها اميركا دون سائر الامم وثانياً بتعليمهم تعليماً عملياً Pratique فبينما ترى المدارس الفرنسوية مثلاً تدرّس طلبتها شعر بوالو وراسين وكورنيل واللغة اللاتينية طبقاً لبروغرام التعليم في القرن السابع عشر والثامن عشر ترى الاميركان يضعون كتباً Pratiques لاثارة الحياة والنشاط في نفوس ابنائهم ودلالتهم على طرق معيشتهم . فاذا خرج تلميذهم من المدرسة ودخل مدرسة الزمان كان قادراً على المعيشة فيها بسهولة لان مدرسته سلحته بجميع الاسلحة اللازمة للفوز في هذه المعيشة . اما التلميذ الاوروبي فيخرج من مدرسته مشحون الذهن بمبادئ خيالية وافكار

كتبيّة (١) لا تنفعه في مدرسة الزمان بل ربما جرّت عليه ضرًا شديدًا. وكنا في الشرق قد عرفنا ذلك حق المعرفة اما من انفسنا او من الطلبة الذين نراهم يخرجون من مدارسه امامنا. وهذا واسفاه العلة الاولى في بلائنا وضياع قوى شبيبتنا وآلامها الشديدة قبل ان نتمكن من اصلاح ما افسدته المدرسة الشرقية في نفوسها

كلاً ليس مرادنا في كلامنا هنا عن (المدرسة الاميركية) الكليات والمدارس الفنية التي تقدمت الاشارة اليها وانما نريد بها (المدرسة الابتدائية). وانك لتعلم (حقيقة وظيفة) هذه المدرسة في هذه البلاد مما يلي

﴿ كيف يكون الامتزاج والاستغراق ﴾ كلنا نعلم ان الشعب في هذه الجمهورية العظمى قد تألف من عدة عناصر مختلفة بين انكليز والمان وايرلنديين وهولانديين ونروجيين وايطاليين وفرنسويين وغيرهم . ولا يزال يهاجر اليها في كل عام نحو مليون نفس من عناصر مختلفة. فانظر ماذا تفعل (المدرسة الاميركية) هنا. انها تأخذ ابناء هذه الملايين الضعيفة القاصرة الفقيرة المهاجرة اليها وتعلمهم تعليماً واحداً . وهذا التعليم الزامي فاننا نكتب الآن هذه السطور والحكومة المحلية تنشر بين اهالي نيو يورك وملحقاتها وفي جرائدها منشوراً تطلب فيه منهم ان يذكروا لها عدد الاولاد عندهم وسنهم وفي اية مدرسة يتعلمون. والأب الذي يبلغ ابنه السنه الثامنة من عمره ولا يبعث به الى المدرسة الابتدائية تحق عليه الغرامة وقدرها ٢٠ ريالاً او السجن شهراً . وعليه ابقاؤه في المدرسة حتى السادسة عشرة على انها تعفي الولد من المدرسة في السنة الرابعة عشرة اذا اثبت لها الأب انه يستعمله عند بلوغه هذا السن في عمل نافع له ولمستقبله . وليس غرض الحكومة في هذا نفع الولد فقط لانها القيمة الشرعية عليه بل لها من ذلك غرض لمنفعتها ايضاً . فانها لا ترمي فقط الى رفع هذه النفوس الصغيرة القاصرة الضعيفة بتعليمها القوي الى مرتبة النفوس العزيزة القوية لتجعل منها رجالاً بل غرضها ايجاد امرين. الاول توحيد اهلها وسكانها بتربيتهم تربية واحدة وجعلها

(١) تنبه الاوروبيون الى هذا الامر في السنوات الاخيرة فقام كثيرون منهم يدعون الى اصلاح بروغرام التعليم . ولما شرعت فرنسا في ذلك منذ بضعة اعوام عارضها فيه اساتذة الحزب القديم بحجة ان (الجمال) الموجود في التعليم القديم لا يجده الطلبة في التعليم الجديد . وكتب يومئذٍ الاستاذ الفريد فوليه من مشاهير الاساتذة في مجلة العالمين يقول ان (المبادىء الانسانية الجميلة القديمة) ستموت بهذا التعليم . ولكن الحكومة تغلبت على هذا الحزب بجعلها بروغرامها وسطاً بين التعليم العملي التجاري المحض والتعليم الايديالي المحض. وهو الصواب

لهم جامعة واحدة وهي الجامعة الاميركية . وبذلك تأمن الانقسامات الجنسية التي تمزق احشاء الام الاوروبية لا سيما وان هذه الانقسامات قد تبلغ هنا اشدها اذا لم تتلافها وذلك لتعدد الجنسيات والاقوام الذين يعيشون فوق ارضها . والامر الثاني انها تعلم ان الامة بافرادها فاذا كانوا رجالاً اقوياء اذكياء مدرَّبين على الحياة استفادت الامة من قواهم البدنية والعضلية واذا كانوا ضعفاء جهلاء بلداء كانوا حملاً ثقيلاً عليها وسبباً لاضعاف الاقوياء فيها . ومنذ مدَّة اقترح بعض النواب الاميركان على مجلسهم تضييق باب المهاجرة على المهاجرين بفرض ضريبة عليهم قبل دخولهم وايجاب امتحانهم في القراءة والكتابة والحساب وبعض الدروس الادبية . ولا يزال هذا الاقتراح في دائرة البحث . فقامت على اصحاب الاقتراح قيامة بعض الجرائد وفي مقدمتها « الجورنال » في نيويورك . وكان من اهم حجج « الجورنال » ان هؤلاء المهاجرين الذين تبغون مضايقتهم انما يمنحون الامة الاميركية رجالاً لا تستغني اميركا عنهم . فان الواحد منهم يحمل الاثقال والتراب والآخر يعالج الحديد في المعمل والثالث يموت ويحيي في النهار بعمله الشاق — وكلهم لا يتعبون و يضنون و يسقمون الا وغرضهم تعليم اولادهم . واولادهم بعد ان يتعلموا هم لنا خير الرجال لانهم يصبحون اميركيين قلباً وقالباً

﴿ ظهور هذا الاثر في السوريين ﴾ ادخل اية مدرسة شئت من المدارس الاميركية هنا وقف عند اي ولد من اولادها . قف مثلاً امام فتىً اسمر اللون اسود الشعر والعينين عصبي المزاج حاد النظر كأنَّ عينيه من نار وسله من اي قوم انت ؟ ولا ريب في انك تلقي عليه هذا السؤال وانت لا تجهل انه سوري او يوناني او اسباني (١) لان صفات جسمه تدل على ذلك . فتسمعه يجيبك وقد ازداد انقاد عينيه ورفع رأسه بكبرياء كأنه على قصره يريد ان ينطح به السماء « انا اميركي » ولا يُستثنى من « هذه الكبرياء الوطنية الاميركية » ولد حتى ابناء الانكليز والفرنسويين انفسهم . فان جميع الاولاد الذين دخلوا المدرسة الاميركية وذاقوا حلاوتها واعتادوا نظافتها وترتيبها وتعليمها السهل المفهوم واناشيدها الجميلة والاعيبها الرياضية المقوية ورفق معاملتها وحماسة التربية القومية فيها كلهم لا يريدون ان يكونوا الاَّ اميركيين . حدَّث احد الآباء السوريين قال . انني على مذهب كذا (وهنا سمى مذهباً مسيحياً) وابني في الثانية عشرة من عمره يتعلم في المدرسة الاميركية . وكنت

(١) كثيراً ما سمعت بعضهم في فرنسا يسألني قائلاً « اظن انك اسباني » ذلك لان الاسبان شديدو الشبه بالسوريين واليونان . وقد اخذوا هذا الشبه من الدم العربي الذي امتزج بدمائهم من دول الاندلس العربية

الح عليه ان يرافقني الى كنيستي للصلاة فيها فيجيبني اننا نصلي في المدرسة . وفي ذات يوم تغلبت عليه واقنعته بمرافقتي فذهب معي الى كنيستي . ولما عدنا منها سألته عن رأيه . فاجاب ضاحكاً لم افهم شيئاً وانني استغرب هذه الصلاة وهذه آخر مرة ارافقك اليها (١)

وحدّث اب آخر قال : لما حمي وطيس الخلاف والنزاع بين السوريين هنا اخذت بعض الصحف تطعن عليّ طعناً شديداً . ففي ذات ليلة قصدت منزلي مضطرباً ثائراً فسألني ابني وهو فتىً في الخامسة عشرة ما سبب غضبك . فاخبرته عن السبب . فضحك وقال (« انتم » ايها السوريون تشتغلون دوماً بالسفاسف والصغائر . فماذا يهمك او يضرك ان تطعن الصحف عليك . ان هو الا كلام ذاهب في الهواء . اما رأيت ان الصحف الاميركية تطعن على «رئيسنا» روزفلت نفسه) قال الاب وانني الآن نادم لانني لم افعل طبقاً لرأي ابني

قلنا وان مدرسة تعلم صبيانها تعليماً يجعلهم اهل فهم ورزانة وعقل يفوق فهم الكبار وعقلهم ورزانتهم لجديرة بكل احترام وشكر من المهاجرين السوريين . ومصلحتهم الكبرى ومصلحة امتهم في مستقبلها في هذه البلاد انما هي في ان يجعلوا المدرسة الاميركية على الدوام المربية الوحيدة لابنائهم دون ان يفكروا بانشاء مدارس وطنية شرقية تبقي وتخلّد في نفوس الابناء ذلك الارث القبيح الذي تركه لهم الآباء وهو ارث النفس الشرقية وما يتبعها من قصور فاضح في التعليم والتربية والانقسامات المعلومة

واننا كلما جلنا في شوارع نيويورك وبروكلن ورأينا ابناء السوريين وبناتهم يلعبون مع ابناء الاميركيين وبناتهم ولا فارق يفرق بين الفريقين في النشاط والقوة والذكاء واللغة واللباس والنظافة غير السحنة الشرقية الجميلة لا نتمالك ان نقول ونحن مارون في طريقنا.

ـ اي نعم ايتها المدرسة الاميركية الصغيرة . انتِ قوّة اميركا الكبيرة واساس عظمتها وسلك وحدتها . بكِ تبزر في نفوس ابناء هذه الامة اول بزور القوة والشهامة والشجاعة والاخاء بين الشعوب والادب والجمال . منكِ تبتدئ الخطوة الاولى في سبيل العظمة الاجتماعية وجميع المدارس الكبرى والكليات العظمى والمجامع العلمية والمحافل السياسية التي تأتي بعدكِ انما تبني على اساسكِ . فيكِ العناصر والجنسيات والمذاهب المختلفة تجد الحكم العادل بينها المسكّن نفوسها وآلامها والمحرّك العظيم الذي يمزجها بعضها ببعض مزجاً لطيفاً دون اصطدام ولا احتكاك ويُخرج منها في النهاية شعباً جديداً يطيب له هذا الامتزاج والاستغراق لانه يرقيه وينقذه من نقائصه الاولى

(١) لانستحسن هذا الانقسام المذهبي في العائلة ولكننا ذكرنا هذا المثل لبيان تأثير هذه المدرسة